من قصص الانتفاضة

في بيت ساحور

ماكينة الخياطة و معركة الضريبة

الإهـداء

إلى أحفاد وأخوة عيسى العوّام وجول جمّال وكمال ناصر ...

إلى سكان قريتي أقرت وكفر برعم ...

إلى كل مسلمي ومسيحيي بيت ساحور الشرفاء، يقاومون قتلة الأنبياء والرسل ...

إلى كل من يدافع عن عروبة هذه الأرض، وأماكنها المقدسة من جبال طوروس إلى بحر العرب ... ومن المحيط الأطلسي حتى خليج العرب ..!!

روضة الفرغ الهدهد

هامش جغرافي وتاريخي

تقع مدينة بيت ساحور إلى الشرق من مدينة بيت لحم وإلى الجنوب الشرقي من مدينة القدس عاصمة فلسطين.

جاء اسمها من اللفظ الآرامي ساهور.. ويعني الساهر أو الراعي الساهر، كما ويقال ان الاسم ساحور جاء من كلمة ساحر، اذ سحر الرعاة الساهرين في هذا المكان بيشارة الملائكة بمولد سيدنا المسيح. وبذا انتشر الاسم بعد الميلاد.

والمكان مشهور من أقدم العصور لخصبه وغزارة عطائه، وفيه الكثير من الآثار الرومانية والبيزنطية والعربية والصليبية.

كانت بيت ساحور في أواخر العهد التركي قرية صغيرة يشتغل أهلها في فلاحة الأرض وقطع الحجارة ورعي الأغنام والمواشي. وفيها ثلاث مدارس ابتدائية فقط.. ولكنها تطورت وازدهرت فازداد عدد المدارس فيها وانشئت فيها الصناعات والمشاغل والحرف مثل صناعة التحف من خشب الزيتون والصدف والخياطة والنسيج والتطريز ومصانع البلاستيك والمواد الكيماوية وغيرها.. وازداد العمران فيها حتى اتصلت مع مدينة بيت لحم.

وما إن دخل الاحتلال الصهيوني المدينة حتى عمل على تشريد أهلها وسجن أبنائها وإبعادهم عنها بشتى الطرق.. ولكن أهل بيت ساحور كانوا يقاومون قوات الاحتلال وقوانينهم الجائرة، لتظل مدينتهم مثال المدينة العربية الصامدة بعزتها وكرامتها.

ومنذ بدأت الانتفاضة تشكلت في بيت ساحور اللجان الشعبية لتطبيق قرارات القيادة الموحدة فكانت مثالاً يحتذى بالانضباط والالتزام وكان ان ازداد قمع المحتلين الصهاينة لأبنائها حتى فُرض منع التجول مدة شهر كامل متواصل وذلك في منتصف عام ١٩٨٨، فرمى أهالي المدينة هوياتهم الاسرائيلية في وجه المحتل.. وبعد أقل من عام كانت الهجمة الضرائبية الواسعة على المدينة بأكملها، فاستمرت أعمال النهب والسلب والحصار لمدة اثنين وأربعين يوماً كاملاً والتي تدور القصة حولها..

منحت بيت ساحور «جائزة صندوق السلام الدنماركي لعام ١٩٩٠» وجاء في قرار المنح: «لأهالي البلدة الذين رفضوا الاحتلال الاسرائيلي وقاوموه ورفضوا دفع الضريبة لمحتل يقتل ويشرّد أبناءهم ويدمّر اقتصادهم». وقد تم ترشيح بيت ساحور الآن رسمياً لنيل جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٩٠ وذلك لاستمرار معاناة المدينة ومقاومتها للاحتلال إلى هذا اليوم..

عندما أدان مجلس الأمن الدولي إسرائيل لممارساتها الخاطئة ونهبها لبيوت ومعامل ومصانع بيت ساحور، استعملت الولايات المتحدة الأميركية حق النقد «الفيتو» ضد قرار الإدانة، وضد قرار إعادة الممتلكات المصادرة من أهالي المدينة العزّل وهكذا لم تستطع دول العالم بسبب الولايات المتحدة الأميركية إعادة سرير أو ثلاجة أو ماكينة خياطة أو حتى لعبة أطفال لأبناء بيت ساحور!!

ولعل الطفل العربي يفهم هذه الحقائق ويعيها.. فهي جزء من نضال هذه الأمة في سبيل التحرر.

عمّـــان/ ١٩٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أطلَّ عيسى الهواش من نافذةِ غُرفتِهِ إثرَ سماعِهِ أصواتاً غريبةً تملأُ المكان، جرَّ كرسيهُ واقتربَ من النافذةِ يستطلِعُ الأمرَ.. لقدْ عوَّدَ نفسَهُ ومنذ سنتين على الهدوءِ وضبطِ الأعصاب.. تعوَّدَ أنْ يسمعَ أصواتاً غريبةً وأن يرى أموراً أغرب، فلا يغادرُ مكانَهُ ولا يتحرَّكُ.. وكيف لَهُ أنْ يتحرَّكَ وهو على كرسيِّهِ هذا؟ منذ سنتين لم يعدْ أحدٌ يأخذُهُ في نزهةٍ خارجَ منزلِهِ.. وَمَنْ يستطيعُ أخذَ رجلٍ مقعدٍ يجلسُ على كرسيٍّ ذي عجلات في نزهةٍ في زمنِ الانتفاضةِ هذا؟.. منذُ اندلعتِ الانتفاضةُ في فلسطين لم يغادرْ عيسى الهواش منزِلَهُ في بيت ساحور. لم يعد يتنزَّه في أراضي «دير الرعاةِ»، لم يعدْ يقتربُ من بئرِ «السيدةِ مريم»، ولا «حقل الرعاة»؛ حتى صلاةِ الأحدِ في كنيسةِ المدينةِ لم يَعدْ يُشارِكُ بها إلا نادراً.. في هذه الظُّروفِ الصعبةِ كان مِنَ الصعبِ على عيسى الخروج من بيتِهِ، فمن سيستطيع انقاذه بسرعةٍ حينَ تُطبِقُ دوريات الاحتلالِ الاسرائيلي وتداهِمُ مدينةَ بيت ساحور؟؟..

أطلَّ عيسى الهواش من نافذةِ الغرفةِ يستطلِعُ الأمرَ. فالأصواتُ أخذَت تعلو وتعلو.. جرَّ كرسيَّهُ ورفَعَ نفسَهُ ليرى بوضوحٍ.. كانت صيدلية «الرشماوي» في الواجهةِ.. وعن يمينها محلُّ بيعِ التُّحفِ الشرقيَّةِ لصاحبه «بنورة».. وعن يسارِها محل لتأجيرِ الأشرطةِ لصاحبته «عبلة محمد» ثم دكان المواد الغذائيةِ «لغسان الشوملي». في كلِّ يومٍ منذ أن فتح عيسى عينيه، وهو يُطالِعُ هذه المحلاتِ من غرفتِهِ هذه، يراها عندما تُفْتَحُ أبوابُها وعندما تُغلَقُ، عندما يدخلها الزبائن وعندما يخرجون.. لقد عقد بينَهُ وبينها عن بعد، صداقةً متينة، أصبَحَ يعرِفُ متى تداوِمُ

عبلة، ومتى يـزوِّدُ غسـان محلَّهُ بالبضائع . . ومتى تحضرُ سيارةُ الحليبِ، وسيارةُ المياهِ ومـوزعو الصُّحفِ اليوميةِ . .

عيسى الهواش يراقب الشارع في بيت ساحور

قبلَ أنْ تحتلَّ اسـرائيل مدينةَ بيت ساحور، كـان عيسى طفلاً صغيراً يعـرفـهُ كـلُّ أهـلِ المدينةِ، فلقد وُلِدَ معوَّقاً لا يُحرِّكُ قدميه . . وكانَ أبوه يأخذُهُ كلَّ يوم إلى المدرسةِ القـريبةِ ليـدرسَ، وإلى المتنزَّهـاتِ ليتنزَّه، وإلى الكنيسةِ ليصلي . . وعندمـا مات أبوه اجتمع بعضُ رجال المدينةِ مع رجال الكنيسةِ، وقـرروا تزويـدَهُ بكرسيٍّ ذي عجلات وماكينةِ خياطةٍ يدويَّة ليعملَ عليها وليكسَبَ رزقَهُ مِنْ تعب يدِهِ . . ومنذ ذلك اليوم أصبحَ الكرسيُّ المتحرِّكُ وماكينةُ الخياطة أعـزَّ ما يملك . . وقـد كَبُرَ عيسى وتزوَّجَ وأنجَبَ ولداً وبنتاً، ولكنه منذُ دخلَ الاحتلال الاسرائيلي مدينتَهُ أصبحَ لا يخرُجُ إلى الشارِعِ إلاّ نادراً؛ فارتبطَ بكرسيِّهِ ونافذةِ بيتِهِ، والشّارِعِ بكلِّ دكاكِينهِ ومحلاّتِهِ وحوانيتِهِ . .

أطلَّ عيسى من نافذةِ الغرفةِ ليرى ما يجري في الشارع، فلقد تعوَّدَ منذُ بدأت الانتفاضةُ أن يرى أموراً غريبةً . . تعوَّدَ أنْ يرى المظاهراتِ تملأُ الشوارِعَ . . وأنْ يـرى الحواجِزَ الحجريَّـةَ يضَعُهـا الشُّبَّـانُ الملثمـون ليعيقـوا تقـدُّمَ الـدوريـات الاسرائيلية . . تعوَّدَ أن يرى الإطاراتِ يحرِقُها الشُّبَّانُ أمـامَ السياراتِ العسكـريةِ

الاسرائيليةِ . . وأنْ يُشاهدَ العلَمَ الفلسطينيَّ مرفوعاً على البناياتِ بأيدي الشبان . . لم يكنْ أحد يحلم أن يرى العلَمَ الفلسطينيَّ يُرفرِفُ في سَماءِ مدينةِ بيت ساحور، ولكنَّهُ منذ بدأت الانتفاضةُ أصبَحَ يراه كلَّ يومٍ . . يرفعُهُ الشُّبَّانُ الملثمون، ثُمَّ يُنزِلُهُ الجنودُ الاسرائيليون عندما يحضرونَ للمدينـة . . منذ بدأت الانتفاضةُ تغيَّر الحالُ في مدينةِ بيت ساحور وكلِّ مدن فلسطين . .

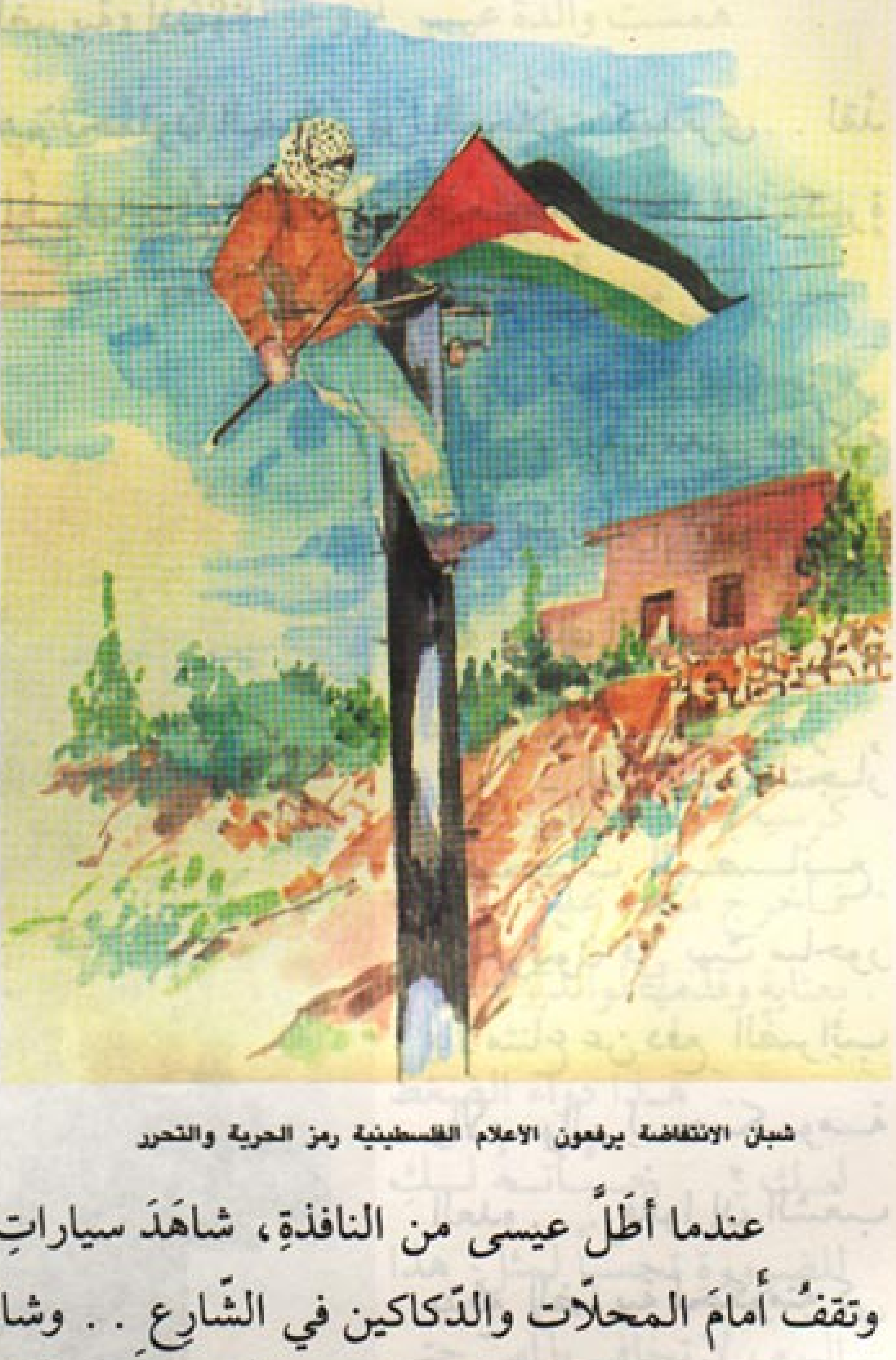

شبان الانتفاضة يرفعون الأعلام الفلسطينية رمز الحرية والتحرر

عندما أطَلَّ عيسى من النافذةِ، شاهَدَ سياراتِ شحْن كبيرة تدخُلُ المدينـةَ وتقفُ أمامَ المحلاّت والدّكاكين في الشّارِعِ . . وشاهَدَ عُمّالاً يدخلونَ المحلاتِ بحراسة بعضِ الجنودِ ويخرجون محمَّلين بصناديقَ كبيرةٍ يضعونَها في الشّاحنات. عندها هوى قلبُ عيسى بينَ ضلوعِهِ وقدْ أحسَّ أنَّ في الأمرِ شيئاً خطيراً. فلِمَ كلُّ هذه السياراتِ وماذا تحملُ؟ . ونادى عيسى أمَّهُ وزوجتَهُ، فنزلت والدته وابنه عادل إلى الشّارع حالاً ليعرفا الأمرَعن كَثَب . . وما هي إلا دقائق حتى عادت الأمُّ مضطربةً وقالت بانفعال :

ـ هي مواجهةٌ جديدةٌ يا عيسى بينَنا وبينَهُم . . مواجهة يسميها الناس «معركةَ الضريبةِ» . .

ـ هل بدأت «معركةُ الضريبةِ» إذن؟؟

ـ نعم بدأت. . وها هم يحمِلونَ البضائعَ مِنَ المحلّاتِ كما ترى. . لقدْ دخَلوا الصيدليَّة وأنـزلوا عن رفُـوفِها كـلَّ الأدويةِ، وَوَضعـوها في صنـاديقَ كبيرةٍ وحمولها إلى الشّاحناتِ!!

قال عادلٌ لأبيه :

ـ ومـا معنى معركـةَ الضريبةِ يا أبي ؟

قال الأب :

ـ لقد ٱلتزَمَ التُجّارُ وأصحـابُ المصَـانـعِ والحرفيوّن في بيت ساحور بالامتناع عن دفعِ الضرائِبِ والأمـوالِ لِـحـكـومـة العدوِّ. . . قالوا إنَّ الشعّب يدفَع الضريبةَ لحكومتِهِ كي تحـافِظَ على الـحـدودِ، وتنشِيءَ المـدارِس، وتشقَّ

ماكينة الخياطة، اعز ما يملك عيسى : مصدر رزقه ورمز كبريائه

الطُّرق، وتديرَ المَصانـعَ وتفتحَ المستشفيـاتِ، ولكنَّ «إسرائيـل» تأخُـذُ أموالنـا العربيَّة، لتجهزَّ جيشهَا بـالَأسلحَة لضـربِنَا وقتلِنـا وتخريـبِ شـوارِعنا بـالدَّبـاباتِ والسّيارات العسكريَّة، ولِتفتَحَ السُّجونَ والمعتقَلات لأبنائِنا. . . وَتَنسفَ بيوتَنا. وقَد قرر أبناءُ بيتِ ساحور عَدَمَ دفعِ الأموال لها. وٱعتبر العدوُّ هذا الموقف «معركة» وقرَّرَ محاربتنا للرُّجوعِ عن قرارِنا. .

هَمَستْ والدةُ عيسى لزوجَةِ آبنها :

ـ تمنيتُ والله وأنا في الصيدليَّةِ لو أنني أحصل على علبتين من دواء «الضغط» قَبْل أنْ يُصادِروا كلَّ تلك الأدويةِ. . . بل تمنيتُ لو أحضرت لَكِ علبتي حليب مِنْ محلِّ الشوملي. . لقد أخذُوا كلَّ بضاعتِهِ، حتى الجبنة والعَدس والحليب والماء، لقد حملوا من دكانه الصناديق وملأوا بها الشاحنات. .

عيسى وقد خبّأ لوالدته بعض الدواء للضرورة

* * * *

وسمعَ عيسى فأدارَ كرسيَّهُ، واتجهَ إلى الخِزَانَةِ فأخرج منها علبةً ملفوفةً بعنايةٍ وقدّمهَا لوالدتِهِ قائلًا :

ـ هذا دواء الضغط لكِ. . . خبَّأتُهُ لكِ للضرورةِ تحسُّباً لمثلِ هذا اليوم، لا تخافي يا أُمي حتى لو انقطعت الأدويةُ عن بيت ساحور فإن أخي في الكويت سَيُرسلُ لنا ما نحتاجه مِنَها .

وتَلفَّتَتْ زوجة عيسى إلى زوجِها مندهشةً !!

وأضاف عيسى :

ـ لا بدَّ أنَّ أخي في الكويت وأقارِبَنا وأقارِبَ أهل بيت ساحور في عمَّان وأميركا وكندا وإيطاليا سيسمعون عن سَرِقَةِ ونَهْبِ محلاّتِنا والاستيلاءِ على بضائعِنا وسيساعدوننا !!

جنود الاحتلال الصهيوني يسرقون المحلات والمصانع والمشاغل

في تلكَ اللّيلةِ لَمْ يَنَمْ فِي بيتِ ساحور أحدٌ. . لَقَدْ تناقلَ النّاسُ أخبَارَ «معركةِ الضريبةِ» وسرقة المحلاّتِ التِّجاريَّةِ والمصانِعِ والمشاغلِ.

* * * * * *

قَبْلَ ألفي عامٍ تقريباً لَمْ ينَمْ أحدٌ في بيت ساحور أيضاً. . لقد تناقَلَ النَّاسُ يومَها أخبارَ بِشارَةِ ميلادِ السَّيدِ المسيح. . قَبْلَ ألفي عامٍ وفي سهول بيت ساحور الخصبة كانَ الرُّعاةُ يسهرونَ في مغاراتِهم يتسامرون. . وكانَ ثلاثة منهم يجلسون في مغارةٍ بعيدةٍ متطرِّفةٍ، عندما فوجئوا بضوءٍ غريبٍ يملأُ المكانَ؛ ولم يدروا: هل انشقت الأرض عن الملائكة، أم هبطوا عليهم من السَّماء. . أقبلت الملائكةُ تخبر الرعاةَ بخبرٍ ساحرٍ غريبٍ: «لقد وُلِدَ الليلةَ نبيٌّ طاهِرٌ: لقد ولدت مريم العذراء

عيسى عليه السلام» . . وغابَتِ الملائكةُ عَنِ الأنظارِ وبقيَ نورُها ونورُ الوليدِ الجديد يملأ المغارةَ والسَّهلَ الخصِب . .

في تلكَ الليلةِ لَمْ يَنَمْ أحدٌ في بيت ساحور . . آنطلق الرُّعاةُ الساهرون يحملون سحر البشاره وينقلونها إلى الرعاةِ الآخرين . . وأقبلَ الرعاةُ على الطِّفلِ الوليدِ فإذا به يحدِّثُهم في مهدِهِ بينما امتنعتْ أُمُّه مريم عليها السلام عَنِ الحديثِ . . وآنتشرتِ البِشَارةُ بمولدِ النبيِّ الجَديدِ والدِّينِ الجَديدِ، من بيت ساحور إلى بيت لحم، إلى القدس والناصرة وإلى مُدُنِ فلسطينَ كلِّها . . وَكَبُرَ النبيُّ وبدأ يدعو إلى دينِ الله وتعاليمِهِ . .

الرعاة الفلسطينيون في حقل الرعاة: وقبل ألفي عام يبشرون بميلاد السيد المسيح.

كانَ اليهودُ قدْ حرَّفوا شريعةَ اللّهِ التي جاءَ بها النبيُّ موسى عليه الصلاةِ والسَّلامِ، وآبتعدوا عنِ الطَّريقِ الصَّحيح . . كانوا يُحبُّونَ المالَ ويَقْسونَ على الفُقراءِ والمحتاجين، وكانَ رجالُ الدِّينِ اليهودِ أنانيين، يأخذونَ أموالَ الفقراءِ والمحتاجين بحجّة أنها نُذورٌ لله تعالى . . ويُغيِّرونَ كلامَ الله ووصايا التوراةِ لِمَا يُناسبُهم . . كانَ فسادُهم يملأ الأرضَ، فأرسَلَ اللّهُ سيِّدَنا عيسى عليهِ السَّلام ليُعيدَهم إلى الحقِّ والعدْلِ وإلى الحبِّ الصَّادقِ للّهِ ربِّ العالمين . .

آستنكرَ رجالُ الدِّينِ اليهوديِّ أقوالَ السَّيدِ المسيح . . ولَمْ يُعجبهُم أنْ يكشِفَ أنانيَّتَهم وجشعهم وسَرِقَةَ أموالِ النَّاسِ . . فحارَبوهُ حرباً شعواء وعذّبُوهُ ومنَعوهُ من نَشْرِ رسالتِهِ . . ولكنَّ دينَ اللَّهِ خَرَجَ من فلسطينَ لينتشرَ في أقطارِ الدُّنيا كلِّها ؛ ليُعلِنَ ظلمَ اليهودِ وعُدوانيّتهم وتحريفَهم وصايا الله . . وأخيراً . . قَتْلَهم الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ . ولمَّا جاءَ سيّدُنا محمّدٍ (ﷺ) برسالةِ الإسلامِ والقرآنِ الكريم ناصبوه العداءَ أيضاً ، وحارَبُوهُ وقاتلوه . .

واليومَ وفي بيت ساحور ها هو التّاريخُ يعيدُ نفسَـهُ . . وها هم الصَّهـاينةُ ، بأسلِحَتهم ومُعدَّاتِهم العسكريَّةِ ، يحاربون أهلَ هذهِ المدينة . . فكيف سيقاوِمُ أهلُ المدينةِ وأهلُ فلسطين هؤلاءِ اليهودَ الصهاينة ؟ ؟

* * * * * *

شبان الانتفاضة يضعون الحواجز والأسلاك الشائكة والعجلات المطاطية امام تقدم جنود وسيارات المحتلين الصهاينة

نـادى عيسى آبنَـهُ عادل وقالَ لَهُ :

ـ خُذْ هذهِ القمصانَ يـا عادل ، وآذهب بهـا إلى مصنَعِ الخياطـةِ . . قُلْ للمـديـر : والـدي يُسلِّم عليكَ ويرجوكَ أنْ تُرسل لهُ مـزيـداً من القِمـاشِ لكي يخيطها ، فـإنَّ ما أرسلَه في المرّات الأخيرةِ لم يأخذ أكثر من ساعتي عمل . .

والتفت عيسى إلى زوجتِهِ قائلاً :

ـ إنني مستعِدٌ أنْ أعمَلَ عشرَ ساعاتٍ أو أكثرَ في اليوم، المهم أنْ يُرسلَ لي المصنعُ قِطَعَ القِماشِ الكافيةِ..

ولكنَّ عادل عاد إلى والدِهِ لا يحملُ شيئاً، وحضر معه مديرُ مصنعِ الخياطةِ ليقولَ لعيسى :

ـ لا تؤاخذنا يا عيسى.. فالوضعُ في فلسطينَ كلِّها أصبَحَ صعباً على الجميعِ في كلِّ يوم يأتينا مأمورُ الضَّرائب الإسرائيلي لأخذِ الأموالِ؛ هذه يُسمّونَها ضريبةَ إنتاج، وتلكَ ضريبةَ بَيْعٍ، وتلكَ ضريبةَ قيمةٍ مضافةٍ، وهذهِ بدلُ ضمانٍ للعُمّال، إنّهمُ ينظرونَ للعَرَبِ في الأراضي المحتلَّةِ على أنهم بقرةٌ حلوبٌ، تمدُّهم يومياً بما يريدون.

.. لم يَعُدِ الانتاجُ يكفي لِسَدادِ الضرائب التي يطلبونها؛ لَقَدْ أصبحَ العملُ مشكلةً حقاً يا عيسى..

قالَ عيسى بهدوءٍ وهوَ ينظُرُ حولَهُ..

ـ وقِلَّةُ العَمَلِ أيضاً مشكلة.. كيفَ سنُطعِمُ هذه الأفواه يا ترى؟

ـ يفرِجْها ربُّنا يا عيسى.. وآدعُ اللَّهَ معنا أنْ تتحسَّنَ الأحوالُ ويزولَ الاحتلالُ. خُذْ هذهِ الآن...

نَظَرَ عيسى إلى الدنانيرِ التي قدَّمَها مديرُ المصنعِ فأصابَهُ الضِّيقُ. كَيْفَ يأخُذُ مالاً دونَ مقابِلٍ؟ منذُ أدرك عيسى متطلبات الحياةِ وهوَ يعمَلُ ليُعيلَ نفسَهُ وعائلتَهُ، وفيما بَعدُ زوجتَه وأولادَهُ.. ثمَّ إنَّ العمَلَ بالنِّسبةِ له مهمٌ جداً، وماكينةُ الخياطةِ هذه، قَدْ مَهَرَ في العَمَلِ عليْها وأصبحَ ما يُنتِجُهُ وحدَهُ يعادِلُ إنتاجَ ثلاثةِ

أو أربعةِ عُمَّالٍ في المصنَعِ ، فكَيْفَ يَمُدُّ يَدَهُ لمديرِ المصنعِ اليوم؟؟

قالَ عيسى وهوَ يُعيدُ النقودَ للمديرِ. .

ـ شكراً لك. . مستورةٌ والحمدُ للَّهِ يا صديقي، مستورةٌ. . وعندما أحتاجُ أطلُبُ منكَ ما أُريد. .

ـ هل أنتَ متأكِدٌ مِنْ هذا يا عيسى؟ نحنُ أخوان. . والمصيبةُ التي تمرُّ بنا جميعاً تَفْرِضُ علينا التكاتُفَ والمساعَدَةَ. . وكلُّ رجلٍ في بيت ساحور يُحسُّ أنَّهُ مسؤولٌ عن أيةِ عائلةٍ محتاجةٍ في المدينةِ. .

ـ لا تخفْ يا صديقي. . وشكراً لك حقّاً. . فأخي الذي يعمل في الكويتِ أرسلَ لي نقوداً كافيةً، وهو سيرسِلُ لي المزيدَ. . المُهمُّ أنْ ترسِلَ لي قِطَعَ القِماشِ عندما تتوفَّرُ في المصنعِ. .

ونَظَرَت زوجةُ عيسى إلى زوجِها مندهشة؟!

التكافل الاجتماعي في فلسطين المحتلة: الغني يساعد الفقير..

بَعدَ أنْ غادَرَ مديرُ المصنَعِ المنزِلَ قالت نهى لزوجها :

ـ متى أرسَلَ لكَ أخوكَ نقوداً يا عيسى؟ لم نرَ نقودَهُ منذُ مدَّةٍ.

ـ سَيُرسِلُ قريباً يا نهى. . سَيُرسِلُ. . أنا أعرف أنَّهُ سيرسِلُ. . لقَدْ

سَمِعَ حتماً عن معاناتِنا في بيت ساحور ولَنْ يتأخَّرَ عنّا . .

* * * * * * *

منذُ كانَ عيسى وأخوه صبيّين صغيرين يدرسان في مدرسة الدير القريبة كانت آمالهما وأحلامهما كبيرة . . كان عيسى يتفوّق في دروس اللغاتِ والموسيقى بينما كان أخوه يتفوّق في دراسةِ الدين وعلم اللاهوت ، ولكن ومنذُ دخَلَ الاحتلالُ الاسرائيليُّ مدينةَ بيت ساحور ضاقت الحياةُ في وجهيهما . وقد آضطرَّ عيسى للعَملِ مبكّراً لمساعدةِ أهله ، بينما واصلَ أخوهُ الدراسة ، وعندما اقترح أخوه السَّفَرَ إلى الخارجِ للعمَلِ هناك ، آعترض عيسى بشدةٍ . . فكيفَ يَترُكُ الانسانُ أرضَهُ وَوَطنَهُ؟ ولكن أخاه قال :

ـ لا . . . لا أترُكُ أرضي ووطني أبداً يا أخي . . بَلْ أسافِرُ سعياً وراء لقمَةِ العيش . فالاحتلال سيُضيِّقُ الحياةَ علينا أكثرَ وأكثر . . ولعلّي إذا سافرتُ أُعينُكَ على الصُمودِ أنتَ وعائِلتَكَ . . لَقدْ سَافَرَ بعضُ أهالي بيت ساحور إلى الأردن والكويت وأميركا وكندا ، ليس هرباً من الاحتلال بالطَّبعِ ؛ بل أملاً في مساعدَةِ ذويهم على الصُمودِ في أوْقاتِ الشِّدَّةِ!

ولكنَّ أموالَ الأخوة لِدَعْمِهم لمْ تَصِلْ مِنْ مدّةٍ طويلةٍ ، فما الذي يؤخِّرُها يا ترى؟؟ . .

* * * * * * *

ملأت أخبار المداهمات في بيت ساحور صحف العالم ووسائل إعلامه ، وفي مدينةِ عمّان آجتمعَ «الأب عيّاد» و«القس الشوملي» بشبابٍ مِنْ عائلاتِ «الرشماوي وقمصيه والهواش وأبوعيطه وبنوره وبركات والحوراني» وغيرهم مِنْ أهالي بيت ساحور.

امام إحدى كنائس بيت ساحور.. وهناك توجد الكنائس والمساجد جنباً إلى جنب

.. كان الأبُ عيّاد
فِي الثمانينَ من عُمرِهِ[1] ..
لَمْ يَرَ مدينة بيت ساحور
منذُ طَرَدَهُ اليهود عنها..
ولكنّه كان دائم التفكير
بها، والعمل من أجلها..
قالَ الأب عيّاد :

ـ يا إخوان إنَّ ما يقومُ بِهِ أهلُكم في بيت ساحور هوَ أعلى درجاتِ النِّضالِ ضِدَّ العَدوِّ. . إنَّهُ «العصيانُ المدنيُّ» والإعلان لِلعالَمِ أجمَعْ أنَّهمْ يرفُضونَ الاحتلالَ ويَرفُضونَ أنْ يدفعوا لَهُ الأموالَ والضرائبَ التي يَفرضُها عليهم.

.. لقَدْ جمعتُكم اليومَ هنا لنبحَثَ معاً ماذا يمكنُنا أنْ نفعَلَ نحنُ أبناء بيت ساحور في الخارجِ لمعاونةِ إخوتِنا هناكَ فلَقَدْ مَضتْ مدةٌ طويلةٌ وبيت ساحور محاصرةٌ يُمنَعُ الدخولُ إليها أو الخُروجُ منها. فماذا سنَفعَلُ يا تُرى؟؟

والْتفَّ الجميعُ حَوْلَ الأب عيّاد يتدارسون الأمرَ..

* * * * * * *

قالت نهى لزوجها عيسى :

ـ لا تخشَ شيئاً يا عيسى.. أمس تسلَّمتُ أكياساً من البذارِ الجديدةِ والأشتالِ لزراعةِ الحديقةِ حولَ منزِلنا.. الشَّبابُ في اللِّجانِ الشعبيَّةِ يوزِّعون بذور وأشتالَ البندورةِ والخيارِ والخسِّ والثومِ والزهرةِ للمواطنين. ويؤكدون

---

(١) الأب عياد: عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. ومستشار الرئيس ياسر عرفات للشؤون الدينية. والمسؤول عن الجالية العربية الفلسطينية في أميركا اللاتينية.

أنَّ زراعةَ كلِّ بقعةِ أرضٍ من بيت ساحور واجبٌ قوميٌّ على كلِّ شخص فيها. . والحقُّ يُقالُ إنهم على صواب. . فهذه جارتنا عبلة منذ أن أغلقَ العدوُّ محلّها التجاري وصادَروا جميعَ الأشرطة فيه وهي تزرَعُ أرضها، وتأكل وتوزّع للجيران من إنتاجها. .

نَظَرَ عيسى إلى قدميه وإلى الكرسي فأسرعت نهى تقولُ :

ـ سنتعاون أنا والأولاد على الزراعةِ. . انها سهلة جداً والأرض خيرٌ وبركةٌ لقد شاهدتُ «الزهرةَ» تملأُ حديقةَ جارتنا عبلة بل لَقدْ أعطتني رأسَيْ زهرة لطبخِها اليوم.

وفيما كان الزوْجانِ يتحدَّثان إذ بالباب يُدقُّ وتدخُل عبلة وتقول :

ـ لقد اقترحتُ اسمك يا جارنا اليومَ كي تقومَ بتدريسِ طلّابِ الحيِّ مادةَ اللغـةِ الانجليزيـةِ؛ هنا في بيتك. . فماذا تقول؟

قالَ عيسى مندهشاً :

ـ مـاذا أُدرِّس؟ وكيف؟ ومتى. . ؟

ـ تُدرِّسُ الانجليزيةَ للصِّغـارِ الذين تـوقفوا عن الـدراسـةِ. لقـد اتفقـنـا أنْ نُدرِّسَ أبناءَنا في بيوتِنـا إثْرَ إغلاقِ العدوِّ للمـدارِسِ، فنحنُ لا نـريدُ لأطفـالِنا أنْ

والتف ابناء بيت ساحور المُبعدون إلى الخارج يتدارسون طرق معاونة اخوتهم تحت الاحتلال..

ينسوا ما تعلّموه. . وقد آتفقنا أنْ يذهبَ أطفالُ الحيِّ إلى بيوتِ أساتذتِهم أو مَنْ يتطوَّعُ للتدريسِ في بيتِهِ. . وآقترحت آسمك فطلبوا مني آستشارتكَ والردَّ عليهم. .

قالَ عيسى مُتَحمِّساً :

ـ طبعاً . . طبعاً . . نعم أُدرِّسُ في أيِّ وقتٍ تشاؤون. . وأيِّ عددٍ مِنَ الطُلاّبِ. بَلْ إنني أقترحُ يا ست عبلة أن أُعطيهم أيضاً بعضَ الدروس في الموسيقى إن وافقتم. .

وأشارَ عيسى إلى عودٍ قديمٍ معلَّقٍ على الحائِط وقالَ :

ـ هذا العودُ كما تعرفينَ ورثْتُهُ عن والدي، وورثْتُ عنْهُ حبُّ الموسيقى ومنذ وفاة البطلِ «أدمون غانم» ومنْ بعده صديقِهِ البطل «إياد أبو سعدي» على يدِ الإسرائيليين لمْ يَلمَسْ هذا العودَ أحدٌ. . ولكنَّ الموسيقى ضروريةٌ يا ست عبلة. . وهيَ فرصةٌ لي لِملءِ الفراغ، فأنا كما تعرفينَ لَمْ أعُدْ أخيطُ كما يجب. .

منذُ ذلك النهارِ آبتدأ منزِلُ عيسى يَعجُّ بالأطفالِ. . كانَ أطفالُ الحيِّ يُقبلونَ على دُروسِ اللّغةِ الانجليزيةِ لارتباطها بدروسِ الموسيقى. . وكانت أجملُ الأغاني والألحان، تلك الألحانَ الوطنيةَ حيث يعلو صوت الأطفال بأهازيج وأغنيات الانتفاضة :

آتْنَقَّل يا فدائي يا أبو كلاشنكوف   غيرك ما يِحلالي يا أبو كلاشنكوف.
آتْنَقَّل من حارَةْ لحاره   علِّمهم ضرب الحجارة   يا أبو كلاشنكوف.
آتْنَقَّل من حِيطَه لحيطَه   علِّمهم ضرب المُغَيِّطَة   يا أبو كلاشنكوف.
آتْنَقَّل من ساعه لساعه   علِّمهم ضرب المقلاعه   يا أبو كلاشنكوف.

عيسى يعزف على العود احلى اغاني واهازيج الانتفاضة

آتْنَقَّل من زُقَّه لزقَّـه
علَّمهم ضرب البازوكه
يا أبو كلاشنكوف
آتْنَقَّل من ساعة لساعة
علَّمهم ضربَ الشجاعة
يا أبو كلاشنكوف

وآتْـنَقَّـل يـا فـدائي
يا أبو كلاشنكوف

غيـرك مـا يِحْـلالي . .
يا أبو كلاشنكوف

بعدَ أيامٍ دَخلتْ زوجةُ عيسى الدارَ مهرولةً، لا تدري كيف تنقُلُ الأخبارَ. قالَتْ بانفعالٍ شديدٍ . .

ـ السياراتُ والدباباتُ والجرافاتُ تملأُ الشَّارِعَ يا عيسى . .

ـ وما الغريبُ في ذلكَ؟ . . فالسياراتُ والدباباتُ والجنودُ في الشَّوارِعِ كلَّ يومٍ . . فماذا حَصَلَ؟ . .

ـ ليسَ كَكُلِّ يومٍ . . إنَّهم يحاصرون منزَلَ جارتِنا عبلة . .

ـ ولماذا؟ . .

ـ يقولون . . إنَّهم . . إنَّهم . .

ـ قولِي ما الأمرُ . . ماذا يجري . . ؟

ـ يقولونَ إنَّهم سينسفون منزِلَها . .

ـ يَنسِفُونَهُ . . ولماذا . . ؟

- يَتّهمونَ عبلة وأولادها بالاشتراكِ بأعمالٍ إرهابيةٍ ضد «إسرائيل» ويقولونَ أنَّ أحدَ أبنائها مشتركٌ في خلايا تنظيميةٍ ولَهُ دورٌ مهمٌ وقياديٌّ في القيادةِ الموحدةِ للانتفاضةِ..

- وهل حاكموه وعرفوا صدقَ آتهاماتهم..

- طبعاً لا.. ولكن كلُّ أبناءِ بيت ساحور ضدَّ «إسرائيل» فهل سَيَنسِفُونَ كلَّ بُيوتِنا؟.. النَسْفُ سيكونُ خِلالَ نصفِ ساعةٍ فقط.. وقَدْ تجمَّعَ في بيتِها كلُّ الجيران.. والله بيت «حرزان» خسارةٌ أن يُهدَم.. بيت مرتب.. بل أحلى بيت في كلِّ الشارع.. الله ينتقم منهم يا رب.. ماذا ستفعل عبلة، وأينَ ستذهبُ هي وأبناؤها..

الاضرابات العامة التزاماً باوامر القيادة الموحدة للانتفاضة

- إذهبي يا نهى.. اذهبي الآن عند عبلة فقد تحتاجُ منكِ أمراً ما..

- سأذهبُ طبعاً. لقد جئتُ فقط لأُخبرَكَ حتى لا تفاجأ بصوتِ التدمير والانفجارِ. لقَدْ أعطوها نصفَ ساعةٍ لإخراج حاجيّاتها المهمّةِ مِنَ المنزلِ. وسأذهَبُ لأُساعدها.. الله يُعينُها ويعين أبناءها.. عبلة امرأة مناضلة حقاً..

ولَمْ تَكدْ نهى تتجاوز عتبة الدار حتى هزَّ الانفجار أرجاء الدّار. فآهتزَّ

الأثاثُ؛ وسقطَ «العود» عن الجِدارِ، وسقطت المزهريّةُ عن الطاولةِ. . وتحرّكَ الكرسيِ!! وآهتزّت ماكينةُ الخياطَةِ!!

وغَشَتْ غمامةُ حزنٍ كبيرٍ نَفْسَ عيسى. . وأطلَّ من نافذتِهِ فرأى زوجتَهُ تهروِلُ مع غيرِها باتجاهِ المكان. .

كانَ عمودُ الغبارِ الكثيفِ ينتشِرُ حولَ الدّارِ ثُمَّ يرتَفِعُ إلى الأُفق. . فلمّا آنقشَعَ، بانَ المنظَرُ للجميع. . لَقَدْ زال كلُّ أثَرٍ للدّار وآمتلأتِ الأرضُ بالحجارةِ والركامِ!!

أمام حجارة البيوت المهدومة، والطناجر المتناثرة وصوف الفراش المنفوش، يتساءل المرء كيف سينسى الأبناء ظلم الأعداء؟

في أوقات المصائِبِ الكبرى تنعَقِدُ الألسنُ، ويتوقَفُ الكلام. . في ساعاتِ المآسي العظيمةِ يتوقَّفُ الفكر وتلتجِمُ الأحاسيس. . وماذا يُمكِنُ لأحدٍ أنْ يقولَ في مِثْلِ هذا الموقف؟. أمام أكوامِ الحجارةِ وأرْجُلِ الكراسي والطاولات، أمامَ الأواني والطناجرِ المتناثرةِ، وصوفِ الفراشِ المنفوشِ، أمامَ الشّبابيكِ المحطّمةِ؛ تتوقَّفُ الأفكارُ ولا يقوى اللّسان على الكلامِ. . .

كلُّ آمرىءٍ وضَعَ يدَهُ على وجهِهِ يصوِّرُ المأساةَ العنيفةَ ليختزِنَها في أعمَقِ أعماقِهِ، وليورِّثَها جيلاً بعدَ جيلٍ. . ينقُلُها في خلايا دماغِهِ كي يراها أبناؤهُ وأحفادُهُ فلا يَنْسوها أبداً. .

عيسى يخيط الاعلام الفلسطينية رمز العزة والكبرياء..

وتشابكت أيدي الرِّجالُ والشَّبابُ والنِّساءُ.. تشابكت أيدي الشُّوملي والأطرش وحدَّاد وبنّورة وأبوعيطة وقمصية والرشماوي وعبلة ونهى وأُم عيسى وأبنائهم وأبناءِ الشارع.. وتعاهَدَ الجميعُ على إعادة بناءِ الدَّار ولو بَعْدَ حين..

ومَشَتْ الجمُوعُ في مظاهراتٍ غاضبةٍ، بينما آنسحبت سيّاراتُ العدوِّ إلى خارجِ المدينةِ!!

* * * * * *

في شارِعِ «حقلِ الرُّعاةِ» في بيت ساحور وقَفَ الشُّبانُ ينتظرونَ اللحظةَ المناسِبَةَ للإنقضاضِ على الحافلاتِ والسَّياراتِ الإسرائيليَّةِ.. وفي شارِعِ «الشهيد أبو جهاد»، «والمطران أبو سعدي»، وفي حي «جبل النار وشاتيلا» وَخَلْفَ كلِّ زاويةٍ وَمنعطَفٍ وقَفَ الشَّبابُ الملثَّمونَ ينتظِرونَ اللحظاتِ المناسبَةَ لضربِ حجارَتهم وزجاجاتِهم الفارغةِ والحارقةِ على جنودِ العدوِّ. هؤلاء الشَّباب الذين كانوا يتمنُّونَ لو كانوا في مدارسهم أو جامعاتهم ينعمونَ بالسَّلام والاستقرارِ، مضطرُّونَ لوجودِ الاحتلالِ وجنودِهِ أنْ يُدافعوا عن أنفُسِهم، وأنْ ينتقِمُوا لنَسفِ بيوتِ أهاليهم وأَنْ يثأروا لاستشهادِ رفاقِهم..

كَمْ حافلةً حطَّمَ الشَّبابُ آنتقاماً لبيتِ عبلة؟ كَمْ جندياً جَرَحوا بحجارَتهم؟

كَمْ سيارةً لشحنِ المؤن للمستوطنين حطّموا وقلّبوا؟..

منذُ بدأتِ الانتفاضةُ في فلسطين أحسَّ كلُّ فَرْدٍ ذكراً أم كانَ أُنثى، شاباً كانَ أم طفلاً أنَّ عليهِ الاشتراكَ في مقاومةِ المحتلِّ، فهذا الاحتلال قد كشَّرَ عن أنيابِهِ فعلاً!! وهم قد أصرّوا على الردِّ عليه وتحطيمِ سياراتِهِ وقتلِ جنودِهِ.

* * * * * * *

كلُّ يومٍ أو يومين يفتَحُ عيسى ماكينةَ الخياطةِ ويتفقّدُها.. يمسَحُ دواليبَها وَيُزيّتُ براغيها وينفُضُ الغُبارَ عن أجزائِها... فهي أعزُّ ما يملكُ، هِيَ مصدَرُ رزْقِهِ وهي تسليتُه. كانَ عندما يُنهي العمَلَ عليها، يُغطّيها بشرْشَفٍ مطرّزٍ جميلٍ، طرّزتهُ أُمُّهُ بيديها، ثمَّ يَضَعُ فوقَها مزهريةً صغيرةً فيها وردةٌ صغيرةٌ جميلةٌ مِن بستانِ جارتِهم عبلةَ. ولكنه منْذُ بدأتِ الانتفاضةُ لَمْ يَعُدْ يُنتِجُ طوال الأسبوعِ ما كانَ يُنتِجُهُ في يومٍ واحدٍ... ومنذ ذلك اليوم المشؤوم لَمْ تَعُدْ مزهريَّتُهُ تمتلىءُ بالورودِ الجميلةِ كُلَّ يومٍ... فقد تحوّلَ بُستانُ جارَتِهم عبلةَ إلى كومةِ حجارةٍ وإسمنتٍ في أحدِ أطرافِها خيمةٌ صغيرةٌ تسكُنُها عبلةُ وأبناؤها..

في صباحِ أحدِ الأيّام دخلتْ عبلةَ مبكرةً إلى بيتِ جارِهم عيسى تَحمِلُ كيساً كبيراً، والتفَّ حولَها كلُّ مَنْ في المنزِلِ، عيسى وزوجتُهُ وأُمُّهُ وأبناؤه... فَتحتْ عبلة الكيسَ بسرعةٍ وقالت:

ـ خُذْ هذهِ الأقمشةَ يا عيسى، أرجو أن تُخيطَها لنا أعلاماً فلسطينيةً بمقاساتٍ مختلفةٍ فالشَّبابُ بحاجةٍ لمزيدٍ مِنَ الأعلام... وأنا بحاجةٍ لعلم كبير أضَعُهُ على خيمتي، فلقد أنزل الجنود أمس العلمَ عن الخيمةِ!!

سُرَّ عيسى بعملِهِ الجديد، وبخياطةِ العلم الفلسطيني لرجالِ الانتفاضةِ.

وبعدَ مدّةٍ جاءَ مديـرُ مصنَعِ الخياطةِ السيد يـعـقـوب الأطـرش حاملاً كيساً كبيراً . . .

الحقد الصهيوني يصادر الماكينات ويعطل المصانع والمشاغل..

ـ ما هذا؟ هل هذا قماشٌ للخياطةِ؟

ـ نعم يا عيسى

ـ وماذا جرى؟

أرجو أن تستعدَّ للإنتاجِ المكثَّفِ، فسأحضِرُ لكَ مزيداً مِنْ هذهِ الأقمشةِ لخياطَتِها . .

ـ ما الذي جرى؟ هلْ تحسَّنَ الوضعُ؟

ـ لم يتحسّن . . بل ساءَ يا عيسى!!

ـ كيف؟

ـ جاءوا بالأمسِ إلى مصنعي، وأخذوا كلَّ ماكيناتِ الخياطةِ والمقصّاتِ الكهربائيةِ، فتوقَّفَ العمل نهائياً . .

ـ ماذا؟ أخذوا ماكيناتِ الخياطةِ . . لماذا؟! وكيف؟!

ـ أقولُ لكَ لماذا وكَيْف . . فبعدَ صدورِ بيان القيادةِ الموحّدةِ للانتفاضةِ الأخير يطلب منّا نحنُ أصحابَ المتاجرِ والمصانِعِ عدَمَ إعطاءِ أيّةَ بيانات لرجال الضّرائب الإسرائيليةِ تُفيدهم في تحديدِ حَجْمِ العملِ في المصنَعِ؛ نزلتُ أنا والمحاسب ومديرُ المبيعاتِ إلى المصنَعِ لإخفاءِ الأوراقِ الرسميَّةِ أو إحراقها . .

ولكننا بينما كنَّا هناك إذ بعشراتِ الجنودِ الإسرائيليينِ يَدخلونَ المصنَعَ دفعةً واحدةً. . فقال لنا الضابط :

ـ «سنرى مَنِ الذي يَحكمُ بيت ساحور نحنُ أم قيادةُ الانتفاضةِ؟؟ سنرى أيُّ القراراتِ التي ستُنفَّذُ في بيت ساحور : قراراتُ القيادةِ الموحدةِ للانتفاضةِ أم قراراتُ الحاكِمِ العسكريِّ». . وبينما أشار لجنودِهِ بضربِنَا بالهراواتِ؛ أكمَل حديثَهُ قائلاً :

ـ «كُنَّا نحارِبُكم في أنفسِكُم، واليومَ سنحارِبُكُم في أموالِكُم أيضاً. . وسَترضَخونَ واحداً إثرَ الآخر. . سترضَخُون وستدفَعونَ الأموالَ وسنكسر أسنانَكم وعظامَكُم. . أعلنتموها حرباً علينا وسمَّيتموها «معركة الضريبةِ» ثم أعلنتُم العصيانَ وسمَّيتموه «العصيانَ المدنيَّ». . وقلتم لا ندفَعُ لحكومةِ «الاحتلال» ولكنكم سترون الآن كيف ستدفعون». .

وقد سأل الضابطُ مأمورَ الضرائِبِ كَمْ على هذا المصنع أن يدفَعَ ضريبةً للدولةِ فقالَ الأخير : «مئة ألف دينار فهو مصنع للنسيجِ والخياطةِ، وقد تراكمت عليهِ الضرائبُ منذُ مدة طويلة. .» ثم قال :

ـ وكم سيارةً يملك؟

ـ ثلاثة. .

ـ وقيمتُها؟

ـ ثلاثونَ ألفاً من الدنانير. .

ـ إذن نحتجزُها ونأخذُها حالاً. . فكم يُصبحُ الرصيدُ الآن؟. .

ـ سبعونَ ألفاً يا سيدي.

ـ نخصُم لَهُ نِصفَ المبلغِ فيدفَعُ ثلاثينَ ألفاً فقط!!

والتفت إليَّ وقال ماذا ترى؟ فظللت صامتاً.. فأضاف..

ـ وكَمْ عندَهُ في قِسْمِ الإنتاج مِنْ قمصانَ وبيجاماتٍ وبنطلوناتٍ جاهزةٍ؟

ـ ما يعادِلُ خمسةَ آلاف دينار..

ـ عظيمٌ.. عظيمٌ جداً.. هوّنا عليهِ الأمرَ.. نخصِمُ ثمنَها ونأخذها، فكَم يبقى؟

ـ خمسة وعشرون ألفاً.

تدفعها الآن يا «أطرش».. ونترُكُ لكَ المصنَعَ يعمَلُ حسبَ القانونِ.

وظَلَلْتُ ساكناً لا أُجيب فأنا لا يمكن أن أدفع وأُلغي أمراً آرتآه كلُّ أبناءِ بيت ساحور وآتفقوا عليه.. فأضافَ الضابطُ بصوتٍ فيه رقّةٍ، بل فيه استعطاف ورجاء:

ـ سأخصم لك أكثر وأكثر.. أخصم القيمة إلى خمسةِ آلافِ دينار فقط. تصوَّر!! من مئة ألفٍ إلى خمسةِ آلاف.. إدفَعْ وأَكتُبُ لك وصلاً وأُنهي قضيتك..

ولما ظَلَلْتُ رافضاً ضَرَبَ الطاولةَ بكفِّهِ وقال:

ـ إسمع «أطرش».. كلُّ الناسِ دفعوا.. الرشماوي في صيدليَّتِهِ دفَعَ، والشوملي في دكّانِهِ دَفَع.. ومحلُّ التُحفِ الشرقيَّةِ، ومصنَعُ الاسفنجِ، ومشغَلُ خشب الزيتون.. كلُّهم دفعوا فلماذا لا تدفعُ أنتَ؟.. إنْ لم تدفَعْ سنصادر ماكيناتِ الخياطةِ والمقصّاتِ الكهربائيةَ، وسيتوقّفُ مصنعُكَ إلى الأبدِ.. لن تنفَعَكَ القيادةُ الموحّدةُ ولَنْ يسمَعَ بأمرِكَ أحدٌ.. لَنْ تستطيعَ الإتصالَ بأيِّ إنسانٍ

في الدنيا ليقِفَ معكَ.. لا أهلُكَ في عمّان ولا البابا في الفاتيكان ولا كلُّ رجالِ الدينِ المسيحيِّ أو الإسلاميِّ في كندا أو أميركا أو حتى في القمرِ!!

وتركني الضابطُ الإسرائيليُّ وذَهَب، وحَمَلَ رجالُهُ الماكيناتِ والمقصّاتِ: خلعوها من أرضِها.. كانت «معركة» معهم يا عيسى؛ كانوا يريدون أنْ ينتصروا على إرادتي فيحطموا إرادةَ الشَّعبِ الواحِدِ، ولكنَّني انتصرتُ عليهم.. ألا ترى ذلك؟؟

نَظَرَ عيسى إلى أكوامِ القماشِ.. ونَظَرَ إلى ماكينتهِ المغطاةِ بالشَّرشَفِ المطرَّزِ؛ آقتربَ منها.. تحسّسها بيده ودَّعَ صديقَهُ.. ولَمْ ينبِسْ بِبِنْتِ شفةٍ..

لَمْ يكَدْ مديرُ المصنع ينزِلُ من بيت عيسى حتى شاهَدَ ثلاثةَ جنودٍ يتحلَّقون حوْلَ جارِهم «الرشماوي» صاحِبِ الصيدليَّةِ.. وقَدْ أطلَّ عيسى مِنَ النافذةِ ليودِّعَ المدير، فرأى الجنود الاسرائيليين حولَ «الرشماوي». وقد آقتربَ منهم والمدير وبعضُ المارَّة.. وبدا لعيسى أنَّ في الموضوعِ مشكلةً ما لم يستطِعْ معرفتَها، فما إنْ أطلَّت زوجتُهُ حتى تركَتِ النافذَةَ وآنطلقت إلى الشَّارِعِ.. وتابَعَ عيسى المشهدَ فإذا بجمهورٍ كبيرٍ يتجمَّعُ في الشَّارِعِ.. كانَ الانفعالُ بادياً على الجميعِ وكانَ الجميعُ يتصايحون.. وبعدَ لحظاتٍ إذْ بالرشماوي

في بيت ساحور الأبيَّة.. رمينا الهوية الصهيونية..

وعيسى ايضاً يرمي هويته الإسرائيلية!!

يُخرِجُ من جيبهِ هويَّتَهُ ويَرمي بها الـى الأرضِ . . ومـا هـي إلا لحظاتٌ حتى كانت هناك عشراتُ الهَويّاتُ ملقـاةً على الأرضِ . .

وعادت الزوجةُ إلى زوجِها تخبُرُه بما رأتْ :

«أصرَّ الجنديُّ على أخـذِ بطاقةِ الهويَّة من الرشماوي بغير سبب : وقـدْ رفَضَ الـرشمـاوي إعطاءَه إيَّاها في البدايةِ، فالهويَّةُ للإنسانِ الفلسطينيِّ أمرٌ ضروريٌ في الليلِ أو في النَّهار. . لأنَّ مَنْ لا يحمِلْ هويَّتَهُ يتعرَّضُ كما تعرف للقتلِ فوراً، أويُصبحْ كالسَّجينِ الذَّليلِ لا يمكنُهُ التحرُّكُ من مكانٍ إلى آخرَ. . ولكنَّ الجنديَّ أصرَّ على استفزازِ الصَّيدلي وأخْذِ هويَّتِهِ تحتَ تهديدِ السَّلاحِ . . فلمّا رمى الرشماوي الهـويّة، عَـزَّ على الرِّجـالِ الواقفينَ عَدَم مساعدَتِهِ . . فرموا هويَّاتِهم جميعاً في وجه الجندي، قالوا معاً : خُذْ كلَ هوياتِنا وبطاقاتنا . . فلن نكونَ بحاجةٍ لها . . وسيعطيكَ كلُّ رِجالِ بيت ساحور هويَّاتِهم أيضاً . .

وبهدوءٍ غريب حرَّكَ عيسى كرسيَّه ذا العجلاتِ، وآتجهَ نحوَ الخزانةِ ؛ فتَحَها وأخرَجَ هويَّتُهُ منها وعادَ إلى الشُّباكِ. . وأحسَّت زوجتُهُ بما يقومُ بِهِ فحاولتِ الاقترابَ منهُ أو منعَهُ، ولكنَّهُ رمى البطاقةَ من النافذةِ لتصلَ إلى حيث

تجمَّعَ الرِّجالُ وقالَ بصوتٍ عالٍ لم تسمَعْهُ إلاَّ زوجتُهُ..

ـ وهذه هويَّتي أيضاً.. خذها..

وفي أقلَّ مِنْ نصفِ ساعةٍ انتشرَ الخَبَرُ في المدينةِ فرُميت ما لا يقلُّ عن مائتين وخمسين هويَّةً إلى الأرضِ..

منذُ احتلَّ الصهاينةُ فلسطين، واليهود الإسرائيليُّون يعامِلونَ أبناءَها بأبشعِ أنواعِ البطشِ والإرهابِ سواءً على أيدي قواتِ الجيشِ الإسرائيلي أو من قِبَلِ قطعانِ المستوطنين الإسرائيليين المسلَّحين.. ومنذ قامت الانتفاضة والشعبُ الفلسطينيُّ على أرضِهِ يقاوِمُ هذه القوةِ الغاشمةِ بما لديهِ مِنْ وسائل.. وفي بيت ساحور تعرّضت دورُ العبادةِ من كنائسَ وجوامِعَ للاعتداءات الاسرائيليةِ المستمرَّةِ.. واقتحم الجنودُ المدارِسَ وضربوا الطلبةَ والمعلمينَ وكسَّروا الأثاثَ.. اعتقلوا مئاتِ الرِّجالِ وزجُّوا بهم في السُّجون.. قَطَعوا المياهَ عن البيوتِ وقطعوا خطوطَ الهواتِفِ لعزلِ بيت ساحور عن العالَمِ كلِّهِ.. فَرَضوا الحصارَ العسكريَّ وحظْر التجوُّلِ على المدينةِ أياماً وليالىَ متتاليةً.. صادَروا السَّيارات.. سرقوا الأثاثَ من البيوتِ، رموا قنابِلَ الغازِ في البيوتِ والتجمُّعاتِ السكانيَّةِ وعلى المتظاهرين..

ومنذ قامتِ الانتفاضةُ وشبابُ وشاباتُ بيت ساحور يناضلونَ ويصمدون على أرضِهم وفي بيوتِهم.. يحارِبُون بالحجارةِ والزُّجاجاتِ الفارغَةِ والحارقَةِ.. يتشبَّثون بأرضِهم ويرفُضونَ الرَّحيلَ عنها.. يرفعون أعلامَهم الفلسطينيَّة، يعيدون بناء بيوتِهم المهدومةِ.. يُناضلون لاستمرارِ عيشِهِم الكريمِ ويحطِّمونَ عنجهية وجبروتَ جيشِ الاحتلالِ الإسرائيلي..

ومنذُ ألفي عام عذَّبَ اليهودُ سيِّدَنا المسيح على أرضِ فلسطين..

رفضوا دينه وحاولوا كَتْمَ رسالتِهِ والتعتيمَ عليها..

ولكنَّ دعوتَهُ آنتشرت رغماً عن حاخامييهم ورجال دينهم في كلِّ بقاع الدنيا..

واليومَ حاولَ اليهودُ الصهاينةُ أن يكتموا صرخةَ الفلسطينيين في أرضهم وأن يعتّموا على أنباءِ انتفاضتهم.. حاولوا خَنْقَ أصواتِهم وتدميرَ اقتصادهم وهدْمِ بيوتِهم وإفقارَهم وإذلالهم.. ولكنَّ نصرَهُم سيكونُ قريباً.. قريباً جداً تماماً كما نصَرَ اللّهُ نبيَّهُ المسيح عليه السلام.

* * * * * *

أطلَّ عيسى من النافذةِ فرأى الشاحناتِ الكبيرةَ في الشَّارعِ مرَّةً أخرى. وتساءلَ في نفسِه: دَوْرُ مَنْ سيكونُ اليومَ يا ترى؟.. وبَعدَ لحظاتٍ كانَ بابُه يُدقُّ دقاً عنيفاً..

فتحتْ نهى البابَ فآندفعَ الضَّابِطُ وجنودُهُ وعُمَّالُ التَّحميلِ.. قالَ الضَّابطُ:

ـ أنْتَ الكسيحُ عيسى؟

ـ قال عيسى: نعم..

ـ وأنت تعمَلُ لمصنَع يوسف الأطرش؟

ـ نعم

ـ ولا تدفَعُ ضرائب؟

ـ لا..

ـ إذن ستدفَعُ اليومَ وسننهي أمرَ بيت ساحور «وموقِفَها الواحد».

- ماذا أدفعُ؟

- تـدفَـعُ نقـوداً . .

وماذا يَدْفَعُ المرءُ إذن؟

- لا أملِكُ نقوداً . .

- نصادِرُ أثاثَ بيتِكَ إذن . . لقَدْ سئِمنا من تقديم التسهيـلاتِ لكم . . ومَعَ ذلـك فإنني أُعـرِضُ عليكَ أيُّهـا الكَسيحُ أنْ تـدفَعَ أيَّ مبلغٍ فأُوفِّرَ عليكَ مشقَّةَ البدءِ من الصفر . .

عادل يتساءل : لماذا ياخذون جهاز التلفاز .. انه لنا..

- إفعل ما تراهُ مناسباً فأنا لَنْ أختلِفَ عن إخوتي . .

وأشارَ الضَّابِطُ للعمَّالِ فحملوا الكراسي والكنبايات . . ودخَلَ الضابِطُ المطبَخَ الصَّغير . . كان كلُّ شيءٍ في البيتِ متواضِعاً . ثلّاجةٌ صغيرةٌ ، وغسّالةٌ قديمةٌ ، وغازٌ قديم . . وهبَّتْ نهى ووالدةُ عيسى تدافعانِ عن المطبخِ ، فالثلّاجةُ ضروريةٌ لحليبِ الأطفالِ ، والغازُ للطبْخِ اليوميِّ الذي لا غنى عنهُ . . ليأخذوا الكنبايات أمّا محتويات المطبخ فلا .

قالَ الضابط لنُهى هامساً :

- إدفعي عشرةَ دنانيرَ وأترُكُ لكِ كلَّ الأثاثِ . . وأكتُبُ لكِ وصلاً بالقيمةِ مِنْ وصولاتِ دولةِ «إسرائيل» . . إننا دولةٌ نحافِظُ على القانونِ في كلِّ تصرُّفاتنا . .

وسَكَتَت الزوجةَ . . وقالت الأُم . . لن ندفع ولو عشرة قروش . .

واقترب الضابطُ من جهازِ التلفازِ فهبَّ عادل يقفُ أمامَهُ ويمدّ يديه حولَهُ وصاحَ عادل.. بابا.. بابا.. التلفزيون يا بابا..

وأشار الأبُ لابنه بالسكوت، فسكت.

ونَظَرَ الجنديُّ إلى العُودِ المعلَّقِ على الحائِط فقال مستهزئاً..

- مَنْ يعزِفُ على العودِ؟

- أنــا.

- آه.. كسيحٌ وذو أُذن موسيقيةٍ.. يبدو أنك مُرهَفُ الحسِّ يا هذا..

وأشار للجنديِّ أنْ يُنزِلَ العُودَ..

وأحسَّ عيسى بقلبِهِ يهوي بينَ ضلوعِهِ.. فلهذا العُود ذكرى غاليةٌ عندَهُ، إنَّهُ عودُ جدِّهِ ورِثَهُ عن والده؛ وهو يتمنَّى أنْ يورِّثَهُ لأبنائه. وأحسَّ الضابِطُ بما يعتلجُ في نفسِه فقال..

- تريدُهُ؟

وسَكَتَ عيسى.

- إذا كنت تريدُهُ، أُبقيهِ لك.. هوَ وكلُّ حاجاتِ الدار.. مقابل وصلٍ صغيرٍ.

سكَتَ عيسى وأشاحَ بوجهِهِ عن الضَّابِط.

دَخَلَ الضَّابطُ غرفةَ النَّومِ وأشارَ بحمْلِ الأسرَّةِ.. بينما حَرَّكَ عيسى كرسيَّهُ أمام ماكينة خياطتِهِ كأنَّهُ يُريدُ أنْ يُخفيها عن أعينِ الضَّابِطِ..

ولم يلحَظِ الضَّابطُ الماكينةَ في بدايةِ الأمْرِ.. وبدا أنَّهُ سيغادِرُ الغرفةَ؛ إلاَّ أنَّ أحدَ العمَّالِ قالَ:

- هَلْ نأخُذُ هذهِ الطاولةَ سيِّدي؟

وأزالَ العامِلُ الشرشَفَ ورمى بالمزهريةِ الصغيرةِ إلى الأرض، وآقتربَ الضَّابِطُ وفتحَ الطاولةَ وقالَ :

- هذه ماكينةُ خياطتِكَ إذن.. هذهِ هي مصدرُ رزقِكَ وإنتاجِكَ.. ها... تحاوِلُ إخفاءها.. ولكننا سنأخذُها.. هَلْ لديك اعتراض؟

كادَ قلبُ عيسى أنْ يتوقَّفَ فعلاً وهوَ يرى ماكينةَ خياطتِهِ تُنْقَلُ إلى سيَّارةِ الشَّحن.. إنَّها أعزُّ ما يملك في هذه الحياةِ.. إنَّها مصدرُ رزقِهِ ورزقِ أولادِهِ.. ففيها يُحِسُّ برجولتِهِ وكبريائهِ وإنسانيَّتِهِ، فكيفَ يُصادرونَ رجولتَهُ وكبرياءَهُ وإنسانيَّتَهُ؟؟

عيسى يدفع الكرسي ذا العجلات للضابط الاسرائيلي.. فلعلّه ينفعُ دولته!!

- لَمْ يبقَ في المنزلِ شيء..

وآتَّجَهَ الضَّابِطُ وجنودُهُ إلى البابِ فَصاحَ عيسى :

- نسيتَ هذا أيُّها الرَّجل ؛ «خُذْهُ فقدْ ينفَعُ دولةَ إسرائيل الكبرى» خُذْهُ فقَدْ تحتاجُ إليه...

ودَفَعَ عيسى كرسيَّه ذا العجلات!!

* * * * * * * *

قَبْلَ أنْ يَطلُعَ الفجرُ كانت هناك حركةٌ غيرُ طبيعيةٍ تجري في شوارِعِ وأزقَّةِ بيت ساحور. وآنتشرَ الخبَرُ كما تنتشرُ النَّارُ في العُشْبِ الجافِّ.. وهرولت عبلة

إلى بيتِ جارِهم عيسى تحثُ زوجتَهُ وأمَّهُ على الذَّهابِ إلى مَدْخَلِ البلدَةِ ـ إلى ساحةِ البلديَّةِ، قالت عبلة:

ـ «لقد جاءوا.. لقد جاءوا.. جاءَ عشراتٌ مِنْ رجالِ الدينِ مِنْ كنائسِ الناصرة وبيت لحم.. ومن المسجدِ الأقصى في القدسِ.. جاءَ ممثّلون عن الكنائسِ العربيةِ والعالميةِ.. ومندوبٌ خاصٌ عن الأبِ عيّاد من عمّان.. وجاءَ رجالُ صحافةٍ كثيرون.. وحتى السفير البريطاني نفسُهُ.. دخلوا سراً إذ مشوا مَعَ الشَّبابِ عِبْرَ الطُّرُقِ الجبليَّةِ.. جاءوا ليعرِفوا الوضْعَ داخِلَ المدينةِ عن قُرْب.. لقَدْ سمعوا عمَّا يفعلُهُ اليهود بنا وَهُمْ يريدونَ معرفةَ الحقيقةِ.. وستنتشِرُ الحقيقةُ.. سأُريهم خيمتي وحجارةَ بيتي.. لا يمكنُ أنْ يسكُتَ العالَمُ عن ظُلمِنا.. ولا بدَّ أن أبناءَ فلسطين وأبناءَ بيت ساحور في الخارِجِ هم وراءَ ذلك.. إنَّهم لا يُمكِنُ أن يتركونَنَا دونَ مساعدةٍ.. لقد أعدَّ الشُّبّانُ خرائطَ بيتي، وجمعنا الموادَّ الأوليَّةَ للبناء.. وبوصول أموالِ دعْمِ الانتفاضةِ سنبدأ البناءَ.. وسنُعْليهِ ونُعْليهِ ليكونَ أعلى من البناءِ السَّابق بإذن الله..»

والتفتَتْ عبلة إلى نهى وأم عيسى وقالت.. «لقد وصَلتكُم رسائلُ وحوالاتٌ ماليةٌ من آبنكم في الكويت.. كانت كلُّ الرسائلِ والحوالاتِ متأخرةً، ولكنهم استطاعوا إيصالها أخيراً لعائلات بيت ساحور..»

نَظَرَ عيسى إلى زوجتِهِ وهوَ يقولُ في سرِّهِ: أترين؟. كنتِ تتساءلين عن أخي وعن نُقودِهِ وعن دعْمِهِ لنا في محنتِنا.. كنتِ تتساءلين متى سيسمعون بنا وبظلمنا. أترين؟.. مِنْ بيت ساحور انطلقتِ البشارةُ قبل ألفي عام.. ومِنْ بيت ساحور ستنطلِقُ البشارةُ.. بشارةُ النَّصرِ على اليهودِ الصَّهاينةِ في فلسطين. وسيعلو صوتُ الحقِّ وسينصرنا الله.. وإنَّ الله على نصرِنا لقدير..

تمَّـــــتْ

المراجـــع :

- الجرائد والمجلات الأردنية والمصرية والخليجية الصادرة في عامي ١٩٨٨ - ١٩٨٩م.
- الأخبار المذاعة والمصوّرة عن الأخبار في بيت ساحور.
- «مدينة بيت ساحور بعد أربعة عشر شهراً من الانتفاضة»، من نشرات حركة التحرير الوطني الفلسطيني - فتح.
- قصص الأنبياء ... الدكتور عبدالوهاب النجار.
- تاريخ مدن «بيت لحم»، «بيت جالا»، «بيت ساحور»، للمؤلف د. توما بنورة.
- فيلم فيديو : وطن واحتلال - بيت ساحور اللجنة الأردنية للدفاع عن بيت ساحور.
- لقاءات وأحاديث مطوّلة مع كثير من أهالي بيت ساحور المقيمين فيها والمبعدين عنها.
- نشرات من أرشيف دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية مأخوذة من :
  - جرائد عربية تصدر في فلسطين مثل القدس والفجر المقدسيتان.
  - جرائد أجنبية مثل لوفيغارو الفرنسية والواشنطن بوست الأميركية.
  - جرائد معاريف وهآرتس الاسرائيلية..

الأســـئلة

١ - كيف كان عيسى يحصل على رزقه ورزق عائلته؟ ص٤
٢ - لماذا قرر أبناء بيت ساحور عدم دفع الضريبة لاسرائيل؟ وما هو مفهوم الضريبة عادة؟ ص٦
٣ - ما أنواع الضرائب التي يفرضها العدو على أبناء فلسطين؟ ص١١
٤ - ما المقصـود بـ :
أ - العصيان المدني؟ ص١٤ - ٢٣
ب - الاكتفاء الذاتي؟ ص١٤ - ١٥
جـ - الإبعـاد؟
د - حقل الرعـاة؟ ص٣ - ٨ - ٢٠
٥ - لماذا قرر العدو نسف بيت عبله؟ ص١٨
٦ - كيف كان رد شبان الانتفاضة على هدم بيت عبله؟ ص٢٠ - ٣٢
٧ - هل ينتظر العرب في فلسطين دعم اخوتهم العرب في الخارج؟ وهل تعمل أنت على دعم الانتفاضة؟...

شكـــر

أشكر كل من قرأ مخطوطة هذا الكتاب وأبدى رأيه، فأثنى أو عدّل أو صحّح فيها... وأخصُّ بالشكر الأستاذ الدكتور عبدالرحمن ياغي، والدكتور أحمد نوفل من الجامعة الأردنية... وأشكر السيد معتز مراد، والسيدات افتخار بدران، مريم مشعل، نهى الأطرش، رضا عزالدين، هالة العقاد.. كما وأشكر طلبة وطالبات مدرسة المنهل العالمية وأمينة مكتبتها السيدة انتصار العمد، الذين ناقشوا وبإسهاب هذه المخطوطة وأبدوا آراءهم المميزة فيها؛ ومن هؤلاء الطلبة : سوزان العلمي، انجي حداد، ساهر صبري، رامي عيسى، عمر الهدهد، منى زيدان.

رسوم عبدالرؤوف شمعون

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية ومركز الوثائق (١٩٩٠/٨/٥٣٣)

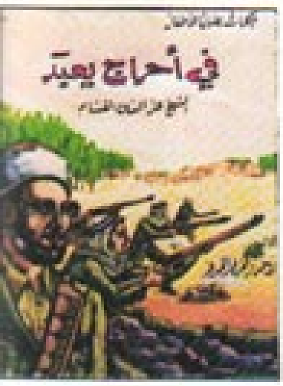

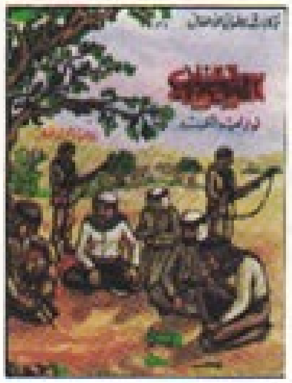
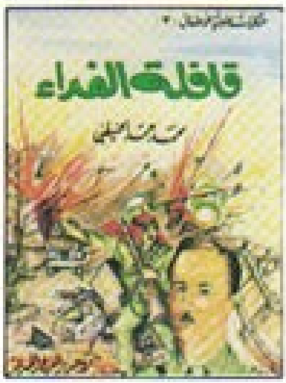

كُتبٌ صَدَرت للمؤلفة

روضة الفرخ الهدهد

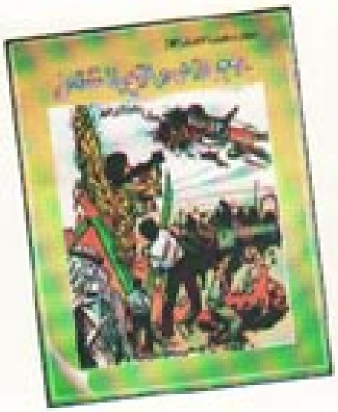
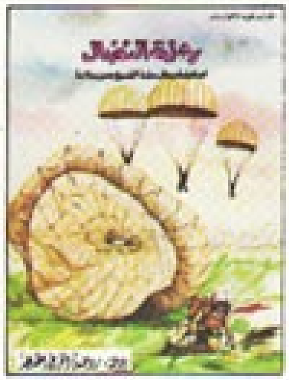
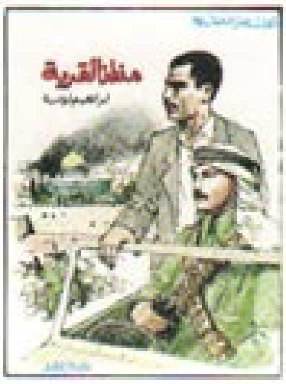
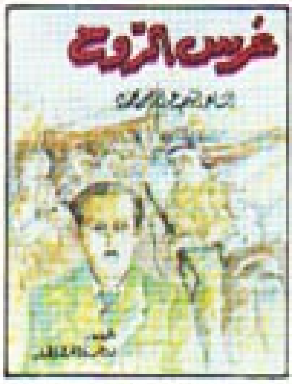

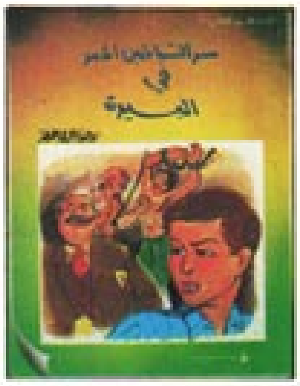

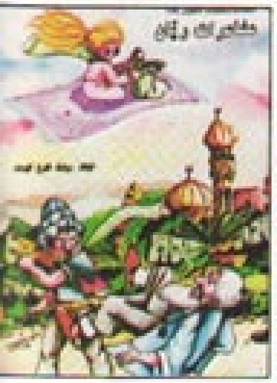
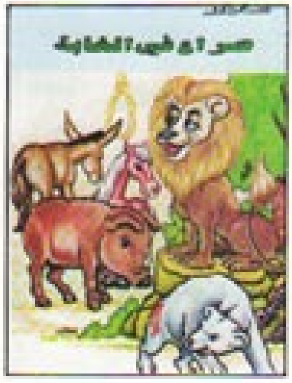

تطلب هذه الكتب من

دار الكندي للنشر والتوزيع

الأردن - ص ب ٤٥ تلاع العلي هاتف ٨٤١٨٨٦ تلكس 21658 Hudasb Jo

ومن المؤلفة روضة الفرخ الهدهد ص ب ٤١٦

عمّان - الأردن هاتف ٨١٩٢٨٢